د. عبدالله ركيبي

تطور القصة الجزائرية القصيرة

في هذا الحديث لا اعرض لظروف نشأة القصة القصيرة في الجزائر لانه قد سبق لي في مناسبات كثيرة ان عرضت بالتفصيل للمؤثرات والعوائق التي اخرت ظهور هذا اللون من الادب عندنا الى فترة متأخرة بالقياس الى القصة في العالم العربي ، كما انه من تكرار القول ايضا الحديث عن العوامل الكثيرة التي اسهمت في ضعف الثقافة العربية وتأخرها في الجزائر الى بداية هذا القرن فهذا ايضا عرضت له بكثير جدا من التفصيل في كتابي : القصة القصيرة الجزائرية ، وتطور النثر الجزائري الحديث ، اذن فمن نافلة القول ان نعيد ونكرر في امور اصبحت من الاشياء المعروفة .

ومع هذا فانني مضطر الى تلخيص بعض ما يتصل بالموضوع حتى نربط بين تطور القصة وبين الظروف ، لان وضع الادب في الجزائر بوجه عام يختلف عن وضعه في بقية الاقطار العربية نظرا الى ان الجزائر قد ابتليت بالاستعمار قبل غيرها من الاقطار العربية ، وان اللغة العربية فيها قد تعرضت لاضطهاد لا نظير له بالنظر الى بقية البلدان العربية الاخرى .

هذا الوضع الشاذ الذي عرفته الجزائر سياسة وثقافة قد كان له أثره في تأخر ظهور الاشكال النثرية الجديدة مثل القصة والرواية والمسرحية . بينما نجد ان الشعر وجد عناية نسبيا واهتماما سواء من قائليه او متلقيه على حد سواء .

فاذا كنا قد وجدنا نماذج من الشعر في العقود الاولى من قرننا الحالي . فان الفنون الاخرى لم تحظ بذلك سوى في العقد الثالث وما بعده حتى الان .

ويمكن التمييز بين مراحل مرت بها القصة القصيرة.

فالمرحلة الاولى هي مرحلة النشأة ، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وهي الفترة التي كان الشعب يتلمس طريقه فيها الى النهوض في شتى المجالات بما فيها الادب . ومن ثم فان القصة او الاشكال القصصية التي ظهرت فيها كانت اشكالا بدائية في اسلوبها وشكلها وطرائق التعبير فيها ومعالجتها للمضامين التي ارتبطت بالفكر الاصلاحي اساسا . ونلحظ عناية بالمقال القصصي بالدرجة الاولى، وشيئا ما بما يمكن ان نطلق عليه الصورة القصصية.

ويرجع هذا الى الفهم الساذج للقصة ولدورها ومفهومها لدى المنشئين من كتابها والى تأثرهم بالتراث في هذا الموضوع ، فطابع التأثر بالمقامة يبدو واضحا في لغتهم واساليبهم ، فليس هناك عناية بالحوار من حيث انه عنصر يعكس رأي الشخصية وفكرها ويساعد على رسم هذه الشخصية ورؤيتها وفهمها للحياة ، وان الحوار يأتي للتعبير عن افكار الكاتب وغرضه من كتابة هذه القصص .

ثم ان الشخصية نفسها لا ملامح لها ولا خصوصية تميزها عن غيرها نظرا الى الاحكام العامة التي يطليها عليها الكاتب والى طابع الجمود والافكار المسبقة عنها فليس لها التصرف او الفكرة او البيئة التي تعيش فيها فضلا عن ابعاد تعطيها سمات معينة تكتشفها من خلال الموقف او التربية والمؤثرات الاخرى التي تسهم في تكوينها وتفردها وامتيازها الى جانب الفكرة التي تفصل بين الخير والشر لدى هذه الشخصية ، فاذا كانت تنتمي الى البيئة الاصلاحية فهي شخصية خيرة ، اما اذا كانت تنتمي الى البيئات الاخرى خاصة مثل بيئة رجال الطرق ، فهي شخصية شريرة شيطانية ، فهذان المحوران هما الاساس في هذه القصص واشباه القصص التي ظهرت في هذه الفترة .

وبالطبع فان الكتاب قد ارتبطوا بالحركة الاصلاحية

كانوا يعبرون عن افكارها ودعوتها وفهمها للادب والحياة بوجه عام ، لذلك فان القصة انحسرت في هذا المجال في الصراع بين المصلحين وخصومهم من الجامدين سواء كانوا من رجال الدين او من رجال السياسة .

وهذا الوضع كان له اثره في ان التجارب دارت في هذه الدائرة وان أحداث القصص ارتبطت بهذا المفهوم ، بالاضافة الى انها احداث معزولة عن الشخصيات فليس هناك ارتباط بين الشخصية وبين الحادثة ومن ثم انعدم التطور فيها بصورة واضحة .

وهذا الفهم للقصة ادى الى عدم التركيز في الاسلوب من جهة والى الاطناب من جهة اخرى ، فالكاتب لا يختار لغته او اسلوبه كما انه لا يختار الحادثة او الشخصية وانما يكتب كما شاء وكما اتفق له ، طالما ساعدته المفردات والكلمات . وطول القصة او قصرها لا يخضع الى مقياس او احساس معين يعبر عنه في لحظة خاصة يختارها من بين اللحظات الكثيرة ويصطفيها من بين الحوادث المختلفة الكثيرة التي تجسد موقفا معينا يتخذه الشخص تجاه الحياة ، وان الكاتب يشاهد واقعة او يستوحيها من بيئته فيدير حولها حوارا وسردا فيما يشبه الخيال القصصي او حول حكاية تدور حول شخصية معينة او فكرة سيطرت على الكاتب او منظرا من المناظر اثر في القصاص فينشىء قصة قصيرة بالمفهوم العام لهذا المصطلح اي يراعي ناحية الكم والحجم ولكنه لا يراعي المقاييس والخصائص الفنية الاخرى .

وكما ذكرت فان المضامين في هذه المرحلة تشابهت وتركزت حول الاصلاح الاجتماعي والديني والاخلاقي .

وان الذين كتبوا في هذين الشكلين البسيطين كثيرون بحيث يمكن القول بأن اسماء كثيرة كانت قد ظهرت في هذه المرحلة ولكن يأتي في مقدمة من غير بصورة واضحة بكتابة هذا اللون الادبي يأتي محمد بن العابد الجيلالي ، والسعيد الزاهري ، الحفناوي هالي ، واحمد رضا حوحو ، وهذا الاخير كان يكتب صوره القصصية في مجلة المنهل الحجازية في الثلاثينات وبداية الاربعينات .

على ان المرحلة الاولى تعتبر تمهيدا لتطور واضح بعد الحرب العالمية الثانية التي كان لها اثرها في اليقظة الفكرية والسياسية والثقافية فقد اتيح للمثقفين الجزائريين ان يطلعوا على نماذج من القصة العربية بعد اتصال بالبيئات العربية سواء عن طريق البعثات العلمية او عن طريق الرحلات او عن طريق الكتب ، ولكن الحصار الثقافي الذي عاشته الثقافة العربية في الجزائر استمر بصورة اقل حدة عن ذي قبل مما اتاح الفرصة للكتاب بأن ينظروا الى القصة نظرة مختلفة نسبيا عن نظرتهم اليها فيما بين الحربين ، فلم يعد مفهوم الادب هو الشعر وحده كما كان الامر فيما سبق ولكن بدأ الكتاب ينتبهون الى ان القصة القصيرة لها قيمتها ومكانتها في الادب العربي والعالمي ومن ثم بدأت الدعوة الى كتابتها والاحتفال بها وان بقيت هذه الدعوة محصورة في نطاق ضيق .

ولا شك في ان الاديب القصاص رضا حوحو كان له الفضل في هذه الدعوة كما كان له الفضل في تطوير هذا اللون الادبي في الجزائر . فقد نشر قصصه في الصحافة الوطنية وان كان بعض هذه القصص في الحجاز كما اسلفنا القول ، وقد امتاز هذا الاديب بروح الفنان الناقد المتمرد وبالثقافة الواسعة وبالاطلاع على الادب العربي والاجنبي ، ولكنه مع هذا لم يستطع ان يحقق مفهومه وتصوره للقصة القصيرة بالرغم من ادراكه لتقاليدها وخصائصها ، ومع هذا يبقى رائد القصة الجزائرية لا لريادته ولكن ايضا لانتاجه الغزير فيها رغم انه استشهد في الثورة عن عمر لم يتجاوز الخمسين . ونحن نلمس تطورا في هذه المرحلة الثانية التي تمتد حتى البدايات الاولى لثورة ديسمبر ١٩٥٤ م. وهذا التطور يمس الجانب الشكلي والمضموني ايضا فمن ناحية الشكل نلحظ توظيفا جديدا للغة بحيث اصبح الكاتب ـ خاصة عند حوحو ـ يهتم بالتعبير الموحي لا المباشر كما هو شأن من سبقه بل وحتى من عاصره .

كذلك فان التركيز على جانب واحد او موقف خاص يختاره الكاتب ويركز عليه ، وان الشخصية ارتبطت بالحادثة نوعا ما ، ومع هذا بقي لدى بعض الكتاب ذلك الانفصال بين الشخصية وبين الحادثة بين الخير وبين الشر فيها. ومال بعضهم الى التركيز في رسم الشخصية ووصف الحادثة ولكن بعضهم لم يستطع ان يتحرر من المفهوم القديم لكتابة القصة كما سبق وان ذكرنا فما زال الكتاب ينظرون الى القصة على انها حكاية حول شخص او اكثر تصاغ بطريقة نثرية عادية دون اهتمام بالعناصر الفنية الاخرى التي تساعد القصاص على جمع خيوط القصة لتصبح وحدة متماسكة في شكلها ومضمونها .

ويبرز الى جانب رضا حوحو كتاب آخرون بدرجة اقل منه كما وكيفا ، مثل احمد بن عاشور ، وعبد المجيد الشافعي ، زهور ونيس ، سعدى حكار وغيرهم ، ممن اسهم في اثراء القصة القصيرة بصورة جلية واضحة .

وبالرغم من المحاولات الكثيرة لزرع هذا الشكل في البيئة الادبية فان النتاج الذي نشر في هذه الفترة نفتقد فيه الاصالة والموهبة الا في النادر القليل كما نفتقد فيه الدوافع الفنية في كتابة القصة وان الدافع الاساسي الا ما ندر كان هو الشعور بالفراغ المريع في انتاج القصة .

ومع هذا فان هؤلاء الكتاب كان لهم الفضل في التمهيد بنشر هذا الشكل الادبي في الادب العربي الجزائري المعاصر . كما نبه الاذهان الى ان هناك فنا ينبغي ان يستخدم للتعبير عن التجربة الخاصة بالفرد والتجربة

العامة المتصلة بالمجتمع . مما دفع بالكتاب الذين جاءوا بعده الى تجويد اساليبهم وحثهم على متابعة السير بل وساعد على تطور القصة على ايـدي الجيل التالي لهم خاصة بعد ان قامت ثورة نفس وفجرت الطاقات الابداعية للشعب في شتى الميادين واتاحت الفرصة للكتاب ان يغيروا من نظرتها الى الواقع والى الحياة .

ويبدو هذا التغيير في ملامح كثيرة ، ففي الفترة من السنين التي تحدثنا عنها كان الكتاب يهتمون بتسجيل الواقع تسجيلا حرفيا اصبح الكاتب في هذه المرحلة يعبر عن الواقع من خلال الحدث والشخصية والاسلوب . ذلك ان الثورة اتاحت للكتاب امكانيات ضخمة وتجارب جديدة دفعتهم للبحث عن الجديد سواء كان اتصل ذلك بالموضوع او المضمون او الشكل .

ومن ثم رأينا الكتاب يبحثون عن الموضوعات الجديدة مثل الحديث عن الاغتراب وعن الهجرة الى اوروبا والى فرنسا بالذات ، ثم الاهتمام بتأثير الحرب واهوالها في حياة الناس ، كما اهتم الكتاب بالجيل الذي لعب دورا بارزا في النضال القومي ، فضلا عن محاكمة الاستعمار الفرنسي واذنابه ، الى جانب العناية بالمرأة ودورهـا في النضال مثل الحديث عن الفلاح الذي رفع السلاح مـن اجل الحرية والعدالة .

وتغير مفهوم البطل ، فبينما كان في الماضي هو الرجل الاصلاحي الذي يدافع عن العقيدة او يدعو الى التقدم ونبذ الخرافات اصبح هو الانسان الذي يكافح ظروفـه ويتغلب على غرائزه الانسانية الذي يحب ويكره ويخاف ويطمح ، يتجرأ ويتراجع ، باختصار أصبح البطل انسانا يمتزج فيه الخير والشر ويرتبط بالارض والواقع . كذلك ظهرت اشكال جديدة للقصة القصيرة ، مثل شكل الرسالة وظهر ما يسمى تيار الوعي بالاضافة الى الاساليب الاخرى في كتابة القصة . واصبحت وظيفة القصة هي التصوير والايحاء والتعبير بدلا من الاسلوب الخطابي الذي كان هو الغالب فيما كتب من قصص فيما سبق . وبكلمة واحدة حاول الكتاب تحقيق السمات الخاصة بالقصة القصيرة المعروفة ولكن بنسب مختلفة ، وهذا راجع الى تجارب الكتاب واختلاف ثقافاتهم وملكاتهم واساليبهم .

على انه ظهر لنا ان في القصة تيار رومانسي وآخر واقعي نتيجـة عوامـل مختلفة بعضهـا يتصل بالكاتب وتجاربه ونظرته وبعضهـا يتصل بالظروف الاجتماعيـة وبالبيئة العامة ،ثم الاوضاع التي تغيرت بعد قيام الثورة مما اوجد نزعة الى الواقع والتعبير عنه بحيث سيطر الاتجاه الواقعي بعد ان انحسر التيار الرومانسي وبعد ان ارتبط الكتاب بالنضال الوطني من اجل الحرية والدفاع عن الارض والشرف والكبرياء القومي .

وقد حاول الكتاب أثناء الثورة ان يعكسوا هـذا الواقع في انتاجهم القصصي ويصوروا تجاربهم انطلاقا من تجربتهم الخاصة او من تجربة الشعب بوجه عام . وهذا الاتجاه يسجل نقلة هامة في القصة الجزائرية وقد استمر هذا الاتجاه بعد الاستقلال .

وقد تطورت اساليب الكتاب في نظرتهم الى الواقع من ناحية وتصويره من ناحية اخرى وبذلك اوجدوا نوعا من التوازن بين الذات والموضوع بين الشكل والمضمون ، بين الفردية والجماعية في الان نفسه .

ويميز المرحلة السابقة كتاب كثيرون مثل الدكتور ابو العيد دودو وعبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار والجنيدي خليفة وعثمان سعدي وحنفي بن عيسى ومحمد خليل ومحمد الصالح الصديق وكاتب هذه السطـور وغيرهم ممن اسهم بقصص قليلة في هذا الاتجاه .

واذا كنا قد لاحظنا ان هناك تطورا في القصص التي ظهرت في هذه المرحلة فان هناك بعض المآخذ التي لم تتملص منها مثل الاهتمام بالجانب الظاهر في الشخصية الانسانية وفيما يتصل بالثورة ومعطياتها وآثارها المادية والروحية ، ولم يهتم بالجانب النفسي للفرد والشعب معا، فكان الصراع فيها سطحيا لا صراعا يعبر عن أزمة الانسان ومأساتـه او انتصاراته وأثرها في اعماق هذا الانسان .

والواقع انني اريد ان اكرر القول فيما ذكرته عـن القصة القصيرة المكتوبة بالفرنسية فقد تحدثت بشيء من التفصيل في كتـابي « القصة القصيرة » وناقشت نشأة الادب المكتوب بالفرنسية وناقشت القضايا المتصلة بهذا الموضوع وبينت رأيي في دور هذا الادب الذي كتب بلغة اجنبية في فترة معينة واظهرت بأنه ادب مرحلي جـاء الوقت ليترك مكانه لادب عربي فتي يعبر عن واقع الشعب وماضيه ومستقبله .

اما المرحلة الاخيرة فهي التي ظهرت بعد الاستقلال والتي تمتد حتى اليوم . والملاحظـة التي نسجلهـا أن القصة قد اصابها نوع من الركود في بداية الاستقـلال لظروف تتصل بالكتاب وبالمجتمع ، ذلك ان الدوافع لكتابة القصة قد ضعفت بالقياس الى عهد الثورة التي فجرت العواطف والمشاعر وأثارت حماس الجميع ، بينما بعد الاستقلال خفت حدة التوتر بعد الانتصار .

ويضاف الى هذا كله ان المجتمع بدأ يتحول مـن مرحلة الاضطراب الى مرحلة الاستقرار المادي والفكري بعض الشيء . ولكن كان المفروض ان نلمس تطورا في هذه الفترة ولكن مع هـذا لا نلحظ تطـورا ملحوظا قبـل السبعينات ، فكتاب الثورة هم اولئك الذين استمروا بعد الاستقلال واستغرقتهم ظروف كثيرة لم تترك لهـم الوقت الكافي لتجديد انتاجهم وهذا ما يفسر قلة النماذج الجيدة في الستينات خاصة تلك التي ترقى الى المستوى الرفيع في هذا الفن الصعب .

على اننا اذا كنا لانلحظ تطورا واضحا في الشكل فاننا نلحظ بعض التطور في المضمون بالرغم من كثير من هذه القصص بقيت تجول في دائرة الثورة واحداثها وآثارها ، ولكن مع هذا وجدت بعض النماذج التي تحاول ان تركز على الواقع وسائر الافكار التي انتشرت في الستينات مثل معالجة الجانب المادي في حياة الفرد والعدالة الاجتماعية او الدعوة الى الاشتراكية ولكن الموقف لا يمثل تيارا واضحا في الستينات . وانها من ارهاصات تشير الى ان الكتاب اصبحوا ألسنة تنطق بما يجول في خلد الشعب .

على اننا نسجل بأن الانتاج في هذا العقد كان من ناحية الكم يدل على غيابه اكثر بهذا اللون من الادب ، كما انه في آخر الستينات بدأ بعض الشبان يمارسون كتابة القصة وان كان كثير منهم لا يدل انتاجه على فهم سليم لمفهومها وبذلك انتشرت الحكايات التي لا تبرهن عن موهبة او اصالة او تمكن سواء من ناحية الاسلوب او المحتوى او الفهم العميق للواقع وابعاده واعماقه .

ولكن من بداية السبعينات وحتى اليوم يمكن ان نسجل بداية مرحلة اكثر اهتماما بالقصة بعد ان ظهر شباب يمثلون جيلا جديدا ويتمتعون بمواهب ادبية وبحس فني ملحوظ وهؤلاء يحاولون التجديد سواء في الموضوع او الشكل او المضمون ، وحتى في الرؤية والنظرة للواقع .

ويمكن ان اذكر بعض الاسماء التي تسير على الطريق نحو المستقبل مثل : أحمد منور ومصطفى قاسي ، وحرز الله وعمار بن ابو حسن ، والقيد بن عروس علاوة على الادرع الشريف وخلاص جيلاني ، وغيرهم من الكتاب الشباب الذين يحاولون التجديد والتجريب ويتمثل هذا لدى البعض في الابتعاد عن الطريق المألوف في السرد القصصي ، وعن الخط التطوري في القصة ، فيهتم بالقصة الدائرية ان صح التعبير ، فهو لا يبدأ من بداية معينة ويتابعه الحدث في تطوره مع الشخصية حتى النهاية وانما يندمج في الحديث ويبني أفكارا حوله وحول شخصيته فلا يهتم بنموها حتى الذروة ، ولكن يهتم بالايحاآت التي تتكشف من خلال التصوير للموقف او النظرة ويستخدم لذلك الازمنة المتداخلة ينتقل فيها من زمن الى آخر ويضيء اللحظة او الفكرة التي يريد الكشف عنها او ابرازها .

كذلك فان بعض الشبان يجرب اسلوب او شكل الفقرات في القصة بحيث يجزئها الى افكار او اجزاء ثم في النهاية يربط بينها بخيط ما ، وربما استعان بالتاريخ باليوم او بالعنوان الفرعي ابرازا للواقع او للمأساة وقد استخدم بعضهم الرمز للافكار برموز مادية يجسد بها افكارا معينة . او برموز تتصل بحياة الشعب وثقافته وتصوره وخياله واحلامه وآماله بغرض اضفاء الحيوية على المعالجة والبعد عن المباشرة من جهة وتصوير الموقف بما يناسبه من غوص وراء الظاهر الى الاعماق .

ويمكن ان نسجل بأن لدى هؤلاء الشبان قناعة اشتراكية يتفاوتون في ابعادها وفهمها وتفسيرها ، ويتأرجحون فيها بين الاعتدال والمبالغة التي قد تدفعهم الى ان يهتموا بالمضمون اكثر من الشكل . ومع هذا يصعب الحكم على من يبقى في الدرب ومن سيتوقف ولكن الذي نلحظه ان بعضهم يبشر بشيء يمكن ان يتضح مع مرور الزمن ومع التجريب والمعاناة والتثقيف المتواصل ، اذا وجدوا الرعاية والعناية المادية والمعنوية .

وكم كنت اود ان اعترض الى الرواية العربية في الجزائر حتى تكتمل صورة هذا الحديث ولكن الامر يتطلب بحثا مستقلا لان الرواية في الجزائر باللغة العربية فن حديث يرجع في نشأته الى السبعينات ولكنني قد تحدثت بشيء من الايجاز عن هذا اللون القصصي في كتابي : تطور النثر الجزائري الحديث ، ويبقى ان نذكر في نهاية هذه الكلمة بأن الاشكال الادبية الحديثة لم تجد فرصتها الملائمة سوى في الاستقلال ولذلك فان الحكم عليها قد يظلمها ويظلم اصحابها ، ولكن المهم ان الارادة متوفرة وان المواهب موجودة ولكن الفن والادب لا ينبت في لحظة واحدة ولكن يتطور مع الحياة يأخذ منها ويعطيها ويستمد بقاءه من الانسان ومدى تعبيره عن اشواقه وآلامه وهذا ما يحاول الادب العربي في الجزائر بأن يقوم به حتى يقوم برسالته النبيلة باعتباره رافدا من روافد الادب العربي الحديث والمعاصر وبوصفه تعبير عن مزاج الفرد والمجتمع ليلتقي في النهاية مع النهر العربي المتدفق خدمة للعروبة والادب العربي .

عبد الله ركيبي
الجزائر

مكتبة النوري
دمشق ـ تجاه البريد العام
وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربية في القطر السوري .